قضايا أدبية ونقدية في كتابات الشيخ محمد الغزالي

Literary and Critical Issues in the Writings of Sheikh Muhammad al-Ghazali

Isu-Isu Kritis dan Sastera dalam Karya Syeikh Muhammad al-Ghazali

بن عيسى بطاهر *

مستخلص البحث

يعدّ الشيخ محمد الغزالي (1335/1917- 1416/1996) - رحمه الله – أحد كبار علماء الأمة الإسلامية في العصر الحديث، فقد كان من أبرز الدعاة إلى الإسلام بمنهجه الوسطي وخطابه المعتدل. وقد عاش صراعًا متصلاً ضد الأيديولوجيات الغربية والأفكار الضارة، ووظّف كلّ طاقاته ومواهبه للدفاع عن الحقّ، وبعث روح الإيجابية والفاعلية في الأمّة الإسلامية، واستخدم قدراته البيانية والخطابية في توصيل الخطاب الدعوي إلى القراء والمخاطَبين بأسلوب أدبي جميل يجمع بين أصالة الفكرة وجمال التعبير الأدبي الرشيق. وفي كتابات الغزالي المتنوّعة كثيرٌ من القضايا الأدبية والنقدية التي عالجها من خلال ربطها بالقضايا المركزية للتجديد والتغيير في الحياة الفكرية والثقافية للمسلمين في القرن العشرين. وقد لفتت انتباهنا خمس قضايا: قضية الأدب الإسلامي، وقضية الأدب وعلاقته بالخطاب الديني، وقضية الأسلوب في الخطاب الدعوي، وقضية الشعر الحرّ، ومصير اللغة العربية. وقد جاءت هذه الدراسة للبحث في هذه القضايا المهمّة من أجل كشفها وتقويمها وبيان موقف الشيخ منها، كما أنّها شملت في جانبٍ منها قراءة نقدية استطلاعية في ديوانه "الحياة الأولى".

---

* أستاذ مشارك بقسم اللغة العربية ـــ كلية الآداب – جامعة الشارقة – الإمارات العربية المتحدة، البريد الإلكتروني: benissa@sharjah.ac.ae

الكلمات الأساسية: الإسلام، الفكر الإسلامي، الخطاب الديني، الدعوة إلى الإسلام، التجديد والتغيير، الأدب والنقد الأدبي، الأدب والخطاب الدعوي، اللغة العربية، التغريب الفكري والثقافي.

Abstract

Sheikh Muhammad al-Ghazali (1335/1917-1416/1996), may Allah bless his soul, is regarded as one of the great contemporary Islamic scholars of modern times. He was one of the most prominent advocates of Islam through his balanced approach and moderate discourse. He lived a life of continuous struggle against alien ideologies and pernicious ideas and cultures, using his full energies and talents to defend the truth and promote the spirit of constructive attitude and efficacy among the Muslim ummah. He used his strong rhetorical ability and eloquent style to convey the Islamic missionary discourse to the public, thus combining the originality of ideas and beauty of literary expression to reach out to his audience. Al-Ghazali's diversified writings abound with many literary and critical issues which he tackled in relation to the central issues of renewal and change in Muslim intellectual and cultural life throughout the twentieth century. Of those literary and critical issues five have caught our attention, namely: Islamic literature, literature and its relationship with the religious discourse, the style in the Islamic missionary discourse, the new Arab poetry not abiding by the rules of classical meter prosody, and the future of the Arabic language. This study looks into these important issues and examine them critically so as to highlight al-Ghazali's position regarding them. The study also includes an exploratory review of his *dīwān* titled *al-Ḥayāt al-Ūlā.*

Key terms: Islam, Islamic thought, religious discourse, call to Islam, renewal and change, literature and literary criticism, literature and Islamic missionary discourse, Arabic language, intellectual and cultural westernization.

Abstrak

Sheikh Muhammad al-Ghazali (1335/1917-1416/1996), dianggap sebagai salah satu ulama besar Islam kontemporari zaman moden. Dia adalah salah satu pendakwah Islam yang sangat menonjol melalui pendekatan yang seimbang dan wacana sederhana. Dia hidup dalam perjuangan terus-menerus melawan ideologi asing, idea-idea dan budaya yang merosakkan dengan menggunakan tenaga penuh dan bakat untuk membela kebenaran dan meningkatkan semangat sikap konstruktif dan kecekapan antara umat Muslim. Dia menggunakan kemampuan retoris yang kuat dan gaya yang fasih untuk menyampaikan wacana dakwah Islam kepada masyarakat, sehingga menggabungkan orisinalitas ide dan keindahan ekspresi sastera untuk menjangkau pendengarnya. Kepelbagaian tulisan Al-Ghazali penuh dengan masalah sastera yang kritis sehubungan dengan isu sentral

pembaharuan dan perubahan dalam kehidupan intelektual muslim dan budaya sepanjang abad kedua puluh. Dari isu-isu kritis sastera ada lima hal yang menangkap perhatian kita, iaitu: sastera Islam, sastera dan hubungannya dengan wacana agama, gaya dalam wacana dakwah Islam, puisi Arab baru tidak mematuhi peraturan prosodi meter klasik, dan masa depan Bahasa Arab. Kajian ini melihat ke dalam isu-isu penting dan memeriksa mereka kritis sehingga untuk menyerlahkan kedudukan al-Ghazali. Kajian ini juga merangkumi kajian eksplorasi dīwān berjudul al-Ḥayāt al-Ūlā.

Istilah kunci: Islam, pemikiran Islam, wacana keagamaan, seruan kepada Islam, pembaharuan dan perubahan, sastera dan kritikan sastera, sastera dan wacana dakwah Islam, Bahasa Arab, intelektual dan westernisasi budaya.

مقدمة

عُرِفَ الشَّيخ محمد الغزالي – رحمه الله – بين الدارسين المعاصرين بحماسته وقوة تأثيره في مجالات الدعوة إلى الإسلام، وكان منهج الاعتدال والوسطية هو السمة الغالبة على أفكاره في التحاور مع الثقافات والأفكار الأخرى، وقد وظَّف جلَّ طاقاته ومواهبه للدفاع عن المبادئ والقيم الدينية، وحرص على بعث روح الإيجابية في المجتمعات العربية والإسلامية، واستخدم قدراته البيانية والخطابية في توصيل الخطاب الدعوي إلى السَّواد الأعظم من الناس بأسلوب أدبي يجمع بين وضوح الأفكار، وجمال التعبير.

والحديث عن هذه التجربة الغنية في مجال الدَّعوة أمرٌ قد يستغرق أكثر من دراسة علمية متخصِّصة، غير أنّ الحديث في هذه الدراسة سيكون عن جانب آخر كان للشَّيخ فيه حضور ومشاركة، وهو حديثه عن الأدب والنقد ووظيفتهما في الخطاب الديني، سواء أكان ذلك عن طريق الحديث والخطابة، أم عن طريق الكتابة والإبداع الفنّي، أم عن طريق النقد الأدبي لفنّ الشعر.

وسبب اختياري لهذا الموضوع الرغبة في الكشف عن تجربة الغزالي الأدبية والنقدية التي غفلت عنها الدراسات التي اهتمت في الغالب بتجربته الفكرية والدعوية، أو ربما أشارت إليها باقتضاب شديد، وهي تجربة تستحق الدراسة والبحث نظرًا لأهميتها في سياق التأصيل النظري للأدب والنقد الإسلاميين في العقود المتأخرة. كما

أنّ إلقاء الضوء على تجارب العلماء في مجالات الأدب فيه من الطرافة والجدّة التي من شأنها تأكيد العلاقة بين الأدب والخطاب الديني، وتأكيد نظرية الالتـــزام في ممارســـة النقد والإبداع الأدبي.

والمتأمّل في كتابات الغزالي المتنوّعة سيلحظ – بلا شكّ – تلك الملكة البيانية التي تمتّع بها في التعامل مع الكلمة وطرائق أدائها والتعبير عنها؛ وذلك من حيث اختيـــار وسائل الخطاب التي تناسب النّاس، في عصرٍ تنوّعت فيه الثقافات، وتلاقحـــت فيـــه الأفكار، وأصبح التفاوت المعرفي والثقافي واضحًا بين النّاس. وقد أشاد بتلك الموهبة الخطابية والكتابية أكثر من دارس، منهم يوسف القرضاوي الذي تتلمذ عليه وعرفـــه عن قرب، قال: "كان الغزالي أحد كتاب الدَّعوة البارزين... وكان يشدُّني إليه فكره الثَّـــائر، وبيانه السَّاحر، وأسلوبه السَّاخر؛ فقد كنت أرى فيه – إلى جـــوار كونـــه داعية – أديبًا من الطِّراز الأوَّل، وكان الأدب والشِّعر في تلك المرحلة هـــو شـــغلي الشاغل، ومحور قراءتي واهتمامي، وكان أوَّل ما قرأته أدب المنفلـــوطي والرافعـــي، وأحيانًا العقَّاد، وكان الغزالي يحمل روح الرافعي وتألّقه، وسهولة المنفلوطي وتدفّقه، وتأمُّـــل العقاد وتعمقه[1]."

والأيام التي قد تستأثر – في بعض الأحيان – بكتمان الأسرار، نطقت معلنةً عن موهبة أخرى كان يتمتَّع بها الشيخ الغزالي في شبابه وهي قرض الشعر، فقد نُشر لـــه ديوان شعرٍ بعنوان "الحياة الأولى[2]،" وفيه من القصائد والمقطوعات التي تـــدلّ علـــى شاعريته المتدفقة التي كان يمكن أن يكون لها شأن لو استمر الشيخ في هذا الطريـــق. وقد استحسن الدارسون أن يجمع الشَّيخ الداعية بين الفقه ونظم الشِّعر، وأن يكـــون أحد أعلام الدَّعوة في النصف الثَّـــاني من القرن العشرين شاعرًا وأديبًا.

وفي كتاباته الدعوية أثار الغزالي بعض القضايا الأدبية والنقدية، وحاول ربطهـــا

---

[1] القرضاوي، يوسف، **الشيخ الغزالي كما عرفته** (القاهرة: دار الشروق، ط1، 2000م)، ص13.

[2] الغزالي، محمد، **ديوان "الحياة الأولى"**، تحقيق مصطفى الشكعة (القاهرة: دار الشروق، ط1، 1998م).

بقضايا التجديد والتغيير في الحركة الفكرية والثقافية في القرن العشرين. ومن أبرز تلك القضايا التي سنعنى ببيانها في هذه الدراسة دعوته إلى الأدب الإسلامي، وإشـــارته إلى علاقة الأدب بالخطاب الديني، وأسلوبه في الخطاب الدعوي، وموقفه من الشعر الحرّ، ودفاعه عن اللغة العربية. وستتبع هذه الدراسة المنهج الوصفي في محاولة البحـــث في هذه القضايا المهمّة، من أجل الكشف عنها وتقويمها وبيان موقف الشيخ منها، كما أنّها شملت في جانبٍ منها قراءة نقدية استطلاعية في ديوانه "الحياة الأولى".

دعوة الشيخ محمد الغزالي إلى الأدب الإسلامي

اهتم الغزالي بكثيرٍ من مشكلات الأمّة الإسلامية في مسيرته الدعوية الحافلة، وقد كانت حماسته قوية، وعاطفته جيَّاشة في السَّعي نحو تغيير واقع المسلمين، من حيث الارتقاء بقيمهم وتصحيح عقائدهم، وتهذيب أذواقهم وسلوكياتهم. ونظرًا لتعدّد هذه المشكلات الحضارية، فقد كان الهدف المعلن للشيخ هو بذل الجهد في الدفاع عن دين الإسلام، والوقوف في وجه تأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين، وتحريف الغالين، ومع وجود هذا الهمّ الكبير، إلاّ أنّه اهتم كثيرا بقضايا الأدب والنّقد، فقد كان يتذوَّق الشِّعر، يحفظُ من قديمه وحديثه، وكثيرًا ما كان يُوظِّفه في حديثه وخُطبه وكتاباته، كما كان قارئًا ومتابعًا للحركة الأدبية في القديم والحديث، وكثيرًا ما انعكست ثقافته الأدبية في كتاباته وأسلوبه الأدبي الجميل. "ومع تعدّد الأوصاف التي يمكن أن يُوصف بها الشَّيخ بحق: كاتبًا وأديبًا، وباحثًا وعالمًا، ومجتهدًا ومفكرًا وداعيًا، فإنَّ الدَّعوة هي الصِّفة التي كان – رحمه الله – يُفضِّل أن ينتسب إليها[1]."

تناول قضية الأدب في كثيرٍ من كتاباته، وهو يرى أنّها إحدى المشكلات الكبيرة التي تعيق استئناف الحياة الإسلامية، ومن خلال عرضه لهذه القضية نـــستخلص أنّـــه يدعو إلى أمرين:

---

[1] مجموعة باحثين، **العطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي**، (عَمان/الأردن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 1996م)، ص16.

أولهما: الدعوة إلى الأدب الإسلامي، وقد أسماه "الأدب الديني"، وهو الذي ينبعث من قيم الإسلام ومبادئه، ويدافع عن أمجاده وبطولاته. وقد شاع مصطلح "الأدب الإسلامي" في القرن العشرين للدلالة على لونٍ من الأدب المنتج في البلاد العربية والإسلامية يتأسّس على العقيدة الإسلامية، وما تتضمّنه من تصوّرٍ للوجود، ويسعى لتمثّلها فيما يصدر عنه، سواءٌ على مستوى القضايا والاهتمامات، أو على مستوى الشَّكل واللغة والقيم الجمالية. وينطلق النقد المصاحب لذلك الأدب من الأسس الإسلامية نفسها[1]، قال: "إنّ الكتابة الأدبية في خدمة الإسلام ليس لها اتِّساع الكتابة الفنِّية وانتظامها، وأعني بالكتابة الأدبية ما يذكِّي العاطفة الإنسانية بعد ربطها بالإسلام، وأخذها بتعاليمه وعباداته ... وفي عصرنا هذا ارتقت الكتابة الأدبية التي أنوِّه بها في آثار رجلين هما الشاعر الهندي محمد إقبال، والأديب العربي مصطفى صادق الرافعي في كتابه "وحي القلم". والذي أريده لونٌ من الأدب الديني يرسم معالَم الإسلام كما يرسم الشاعر – المفتون بالطبيعة – الحدائق الناضرة، والسَّماء الصَّافية، والنّجوم الزهر، والليل السَّاجي، نحن فقراء في هذا الضرب من الكتابة الرَّاقية، مع شدِّة الحاجة إليها في تربية العواطف وصقلها باسم الله[2]." وفي هذا الكلام قيمة نقدية في غاية الأهمّيّة؛ إذ الأدب فنّ جميل يعبّر بصدق عن المشاعر الفيّاضة، ويكون التصوير هو الجانب الطاغي على أسلوبه، كما أنّه الأدب الذي يعبّر عن الفطرة الإنسانية الصافية، ويكون عنصرًا موجّهًا للقيم والأفكار والمشاعر، ويكون أبعد ما يكون عن نظرية "الفنّ للفنّ".

ثانيهما: الدَّعوة إلى رفض الأدب المنحرف بأشكاله المختلفة؛ ذلك أنّه وسيلة في أيدي الاستعمار الثقافي ودعاة التغريب لنقض عُرَى الإسلام، وإبعاد المسلم عن دينه

---

[1] الرويلي، ميجان، والبازعي، سعد، **دليل الناقد الأدبي** (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط3، 2002م)، ص25.

[2] الغزالي، محمد، **مع الله: دراسات في الدعوة والدعاة** (دمشق: دار القلم، ط2، 1996م)، ص327-328.

وثقافته وهُويته العقدية والحضارية. يقول في سياق حديثه عن جوانب النَّهضة الأدبية أيام أحمد شوقي وحافظ إبراهيم، والرَّافعي: "إنّ هذه النهضة الأدبية المباركة كانت تُبْنى على المهاد الأول، وتصل أمجاد المسلمين ما أضاعه التفريط والغدر، وظاهر أن محافظتها على التراث، وتقديسها للقيم الدينية، وولاءها العميق للغة العربية، أنّ ذلك كلّه ثابت لا يتزحزح، لكن الاستعمار الثقافي لم ييأس، وعداوته للغة القرآن لم تفتر، إنّه يريد القضاء على الإسلام، وأيسر السبل إلى ذلك القضاء على العربية وقواعدها وآدابها، وأظنُّه اليوم قد بلغ بعض ما يشتهي، فقد اختفى الأدب العربي الأصيل، وإذا وجدتَ كتاباتٍ بالحروف العربية؛ فإنها وعاءٌ لمعانٍ مبتوتة الصِّلة بأصولنا الروحية والفكرية[1]." فالشَّيخ مؤمنٌ بفكرة المؤامرة التي تستهدف الثقافة العربية الإسلامية، ولكنّه في الوقت نفسه موقنٌ أنّ العودة إلى المنابع الثقافية الصافية هي السبيل إلى عودة الأدب النظيف.

وقد ربط الشيخ الغزالي – كما هو ملاحظٌ – بين النَّهضة الأدبية التي شهدها القرن الماضي، والمحافظة على قيم الإسلام وتراثه الزاخر؛ حيث كان الأدب في إطاره العام محافظًا على قيمه العقدية والأخلاقية وجذوره الحضارية، ومن هنا كان فشل الاستعمار الثقافي في تجفيف الروح الدينية في ميادين الأدب راجعًا إلى تمسُّك أولئك الأدباء بثوابتهم الدينية ومنطلقاتهم الإسلامية، و لم ينجح الاستعمار الثقافي في تحقيق غايته إلاّ حينما استطاع الدخول إلى ميادين الأدب والفنّ، فكان أن جُرِّدَ الأدبُ من مضمونه الإسلامي، وأصبح أدبًا غربيًا – في مضامينه وأساليبه – عن القيم والثوابت الثقافية للأمّة الإسلامية، وهو ما جعل الشيخ يرفض هذا النّوع من الأدب المنحرف رفضًا قاطعًا حيث قال: "إذا كان الأدب مرآة أمَّة ودقات قلبها، فإنّ المتفرِّس في أدب هذه الأيامِ العِجَاف لا يرى فيها البتَّةَ ملامح الإسلام ولا العروبة، ولا أشواق أمّة تكافح عن رسالتها وسياستها القومية وثقافتها الذاتية، ما الذي أراه في صحائف هذا

[1] الغزالي، محمد، **مشكلات في طريق الحياة الإسلامية** (الدوحة–قطر: رئاسة المحاكم الشرعية، ط1، 1402هـ)، ص99.

الأدب؟ لا شيء إلاّ انعدام الأصل وانعدام الهدف، والتسوُّل من شتَّى الموائد الأجنبية، وحَيْرة اللقيط الذي لا أُبوَّة له[1]." فهذا النوع من الأدب في حقيقته أدب غربي مكتوب باللغة العربية، ونقد الشَّيخ له نابعٌ من رؤية نقدية ترى في الأدب تعبيرًا صادقًا عن فكر الأمّة ووجدانها، وتعبيرًا حيًّا عن آمالها وآلامها.

إنّ شيوع الأدب المنحرف في الحياة الثقافية والأدبية أمرٌ ينذر بعواقب وخيمة، وبخاصّة إذا علمنا أهمّية الأدب – والفنّ بصورة عامّة – في توجيه الأفكار والقيم، والأذواق والثقافات، فهذا النوع من الأدب مثل الشَّجرة الخبيثة التي تغري الناس بأوراقها الزَّاهية، ولكن طعمها كالعلقم، ومع ذلك كلّه فإنّ أثرها في الأرض وإن طال الزمان سيزول وينعدم، قال تعالى: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ (إبراهيم: 62). قال الغزالي: "نريد المضي فيما بدأنا به، وإشعار الذاهلين بخطورة الثقافات المُؤذية، بل القاتلة التي روَّجها يومًا ما أدباءٌ ضعافُ الخُلُقِ مرضَى الإيمان، فلمَّا قضوا وتراجع مَدُّهم، أتَى من يحاول استحياء فكرهم وتلميع أسمائهم، حتى يقع الأغْرَار في شركهم، ويستقر الأمر للاستعمار الصهيوني والصليبي على سواء، على حساب الإسلام الذاهب[2]." وقدّم الشيخ نقدًا أدبيًّا لبعض الروايات التي يمثلها هذا الأدب المنحرف، من حيث مضامينها الفكرية المنافية للأخلاق، وأساليبها الداعية للانحلال والرذيلة، كان من أبرزها رواية إحسان عبد القدوس "بائع الحبّ[3]."

علاقة الأدب بالخطاب الديني عند الغزالي

لعلّ أبرز ما يميّز مدرسة الغزالي الدعوية الاعتدال والوسطية، مع الاعتماد على الحوار والمنطق العلمي، والتربية والقدوة الحسنة، وقد وظّف الغزالي كل ذلك في مجال الدعوة،

---

[1] المصدر نفسه، ص99.

[2] الغزالي، محمد، **علل وأدوية** (دمشق: دار القلم، ط3، 1998م)، ص91.

[3] الغزالي، محمد، **كفاح دين** (القاهرة: دار نهضة مصر، ط1، 2001م)، ص211-214.

فكان خطابه أنموذجًا جديدًا لم يعهده النّاس من قبل، وبخاصّة أنّ تجاربه المريرة في الحياة، وقدراته الخطابية والكتابية أهلّته إلى ذلك، "فهو – رحمه الله – أديب كبير، ومؤرِّخ، ومفسر تاريخ، وكاتبٌ في الدراسات النفسية والاقتصادية والاجتماعية[1]،" وقد استخدم الوسائل المتاحة من أجل توصيل خطابه إلى النّاس.

والناظر في مصنفات الشَّيخ سيلحظ أنّ جلّها مطبوع بالطَّابع الأدبي، فالمضامين الفكرية في مجالات الشريعة والعقيدة والفكر الإسلامي معروضةٌ بأسلوب أدبي قريب التناول، سهل الفهم، مناسب للذوق المعاصر، وقد تجلّى هذا الطابع الأدبي في جانبين:

أولهما: توظيف النّماذج الأدبية الرَّاقية في خدمة الفكرة التي يريد توصيلها إلى النّاس.

ثانيهما: اختيار الأسلوب الأدبي في التعبير عن القضايا والمشكلات الحياتية التي تهمّ المخاطَبين.

أمّا الجانب الأوّل فإنّ الشّيخ بثقافته الأدبية الواسعة، كثيرًا ما كان يوظِّفُ النماذج الأدبية الراقية في خدمة الدّعوة، سواء أكانت شعرًا أم نثرًا، فهو يختار بحسّه الأدبي ما يراه مناسبًا من الموروث القديم، ومما برع فيه الأدباءُ المحدثون، ثمّ يمزجه بالحقائق الدينية والعقدية والخلقية، ويؤدِّيه بأسلوب راقٍ ليكون مُلائمًا لأذواق النَّاس وحاجتهم الفكرية والوجدانية.

كان الغزالي مُدركًا لقيمة الأدب ووظيفته الخطيرة في هذا العصر، فقد أصبحت فنون الأدب المختلفة تجذبُ السَّواد الأعظم من النّاس، وأصبح النّاس يميلون – بصورة عامة – إلى اكتساب الفائدة الفكرية بسهولة ويسر، وبالطرق الممتعة والمريحة. ولذلك كان "يختار من شعر المحدثين والمعاصرين المجيدين ما يؤكِّد القيم والمعاني التي يدعو إليها، فتجد عنده من شعر حافظ، وأحمد محرم، ومحمود غنيم، ومصطفى حمام، وعمر الأميري وغيرهم، حتى إنَّه أحيانًا ينقل قصائد كاملة مطوَّلة في بعض كتبه مثل قصيدة

[1] عويس، عبد الحليم، **الشيخ محمد الغزالي تاريخه وجهوده وآراؤه** (دمشق: دار القلم، ط1، 2000م)، ص141.

"وقفة على طلل" لمحمود غنيم، وقصيدة "علمتني الحياة" لمصطفى حمام[1]."

إنّ لغة الخطاب الفكري بحاجة إلى تجديد في كلّ عصر لأي تخاطب العقل والوجدان، وتدخل إلى النّفوس من منافذها المختلفة، ولاسيما أنّ التجديد في هذا المجال أصبح من الضروريات التي اقتضتها الظروف والمستجدات الحديثة، في عصرٍ عرف أنواعًا من الأفكار المتباينة، وألوانًا من الفنون والآداب والثقافات المتصارعة، كما أنّه فضلاً عن ذلك عصرُ السرعة وهيمنة التقنيات والماديات. ومن هنا كان لزامًا على الحاملين لهموم التغيير أن يجدِّدوا وسائلهم في مخاطبة الناس، ويختاروا من اللغة ما يكون مناسبًا لهذا العصر؛ وقد حرص الغزالي على اختيار اللغة الفصيحة الواضحة على الدوام، "فهو يخطبُ كما يكتب، عذوبة ورشاقة وأناقة، فخطبه كلّها قطع أدبية، لا تجد فيها حوشي الكلام ولا سوقيه، كما لا تجد فيها التقعُّر والإغراب الذي يُحْوِجُك إلى المعاجم لتبحث عن معاني ما سمعت[2]." وكثيرًا ما يعتمد على الأسلوب المرسل الجميل في خطابه وكتاباته، ويتفنّن في صياغة التراكيب والجمل، ويكثر من الشواهد والأمثلة المناسبة، ويكثر من الأدلة العقلية والمنطقية بتعابير جميلة.

والخطاب الدعوي بحاجة إلى أساليب وطرائق في الأداء جذابة ومقنعة، فضلاً عن مضامين مناسبة للأحداث والوقائع الحياتية المهمّة، وقد كان الغزالي كما شهد بذلك كثيرٌ من الدارسين "صاحب قلم متميّز ببلاغته وروعة أسلوبه وقوة منطقه، جنّده من أوَّل يوم لتوضيح معالم الإسلام وبيان حقائقه، والردِّ على أباطيل خصومه في الداخل وأعدائه في الخارج، وإضاءة طريق البعث لأمته حتى تعرف غايتها وتستبين طريقها بين أضاليل المضللين، وشبهات المبطلين[3]." وقد شهد له بهذه الميزة أكثر من دارس، وأحبّه كثيرٌ من القراء بسبب هذه الموهبة.

---

[1] القرضاوي، **الشيخ الغزالي كما عرفته**، ص98.

[2] المصدر نفسه، ص61.

[3] المصدر نفسه، ص63.

ومن أمثلة ذلك ما صنعه في كتابه "عقيدة المسلم"؛ حيث دعا إلى عرض مسائل العقيدة الإسلامية بأسلوب يجمع بين فخامة اللغة وجمالها، وصحّة المعنى ووضوحه حتّى تتقبلها العقول وتميل إليها النفوس. وقد حرص على تطبيق ما دعا إليه، فكتب كتابه هذا مخالفًا بذلك الكثيرَ من العلماء القدماء والمحدثين، الذين كانوا يعرضون العقيدة في قوالب جامدة وأساليب صعبة، بل كثيرًا ما كانوا يُقحمون خلافات أهل الكلام في تلك المسائل، فكيف يكون حالُ المتلقّي من هذا كلّه؟! إنّه مثل الصيَّاد الجائع الذي يقضي نهاره في اللهاث وراء الأسماك السَّابحة في النَّهر، ثمَّ يعود في آخر النَّهار بخفي حنين، قال موضِّحًا هذا المبدأ: "إذا كان علم التوحيد على النّحو الذي وصفنا؛ فإنّ كتبه التي تشيع بيننا الآن فشلت في أداء رسالتها شكلاً ومضمونًا، فمن ناحية الشَّكل لا معنى البتَّة لعرض علمٍ ما في توزيع مضطرب بين متنٍ وشرحٍ، وحاشيةٍ وتقرير، وفي لغةٍ ركيكةٍ سقيمةِ الأداء، لغة تصوِّر سقوط البلاغة العربية في عهد الحكم التركي[1]."

وقد نبَّه الغزالي على أهمّية الأدب ووظيفته المفقودة في عرض العقيدة، وقارن بين ما هو شائعٌ عندنا وما هو كائنٌ عند أصحاب العقائد المنحرفة، الذين يعرضون عقائدهم المنحرفة في أجمل صورة، ويزيِّنونها للناس في أثوابٍ قشيبةٍ، وعبارات أدبية رائقة، قال: "تطوّرُ الأدبِ في عصرنا هذا لا يُنكرُ، وقد بلغ من تمكُّنِ المؤلِّفين والمتأدِّبين في اللغة أن تناولوا الموضوعات التافهة، فأخرجوها في ألبسة زاهية، ووجَّهُوا ألوفَ القراءِ – بسحر بيانهم – إلى ما يُريدون، فهل يبقَى الكلام في العقائد حكرًا على هذا النمطِ من الحواشي والمتون؟![2]." فالمعرفة بالأدب وفنونه المختلفة هي إحدى الأدوات المهمّة التي تسهمُ في عملية التجديد في الخطاب الديني.

وقد بيّن الغزالي في مناسبات كثيرة أنّ توصيل العقيدة إلى شِغافِ القلوب، وأداء

---

[1] الغزالي، محمد، **عقيدة المسلم** (دمشق: دار القلم، ط1، 1998م)، ص9-10.

[2] المصدر نفسه، ص10.

واجب الدعوة إلى الله لا بدَّ أن يكون بالمنهج الذي حدَّده القرآن الكـــريم في قولـــه تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل: 125)، وباتباع سنّةِ الرسول الكريم محمّد ﷺ الذي أُوتي جوامع الكلم، وهو القائـــل: «إن من البيان لسحرًا[1].»

وإنّ منْ يتعامل مع مصنفاته المختلفة سيجد تأثُّرًا واضحًا بأسلوب القرآن الكريم، والسنَّة النَّبوية الشَّريفة، وروائع البلاغة في تراثنا العربي الزاخر، ولعلّ هذا ما أكسب أسلوبه رونقًا وقوّة. ومن أمثلة ذلك دفاعُه عن الأسلوب القرآني بعدما عمد بعـــض المستشرقين إلى وصفه بالتَّكرار والتناقض – والمقام هنا مقام استدلال وجدال – حيث قال: "إنّ القرآن الكريم لوّنَ حديثه للسَّامعين حديثًا يمزجُ بين إيقاظِ العقل والـــضمير معًا، ثم تابعَ سوقَه متابعةً إنْ أفلت المرءُ منها أولاً لم يفلتْ آخرًا، كما يُصَابُ الهدف حتمًا على دقَّة المرمَى، وموالاة التصويب، وذلك هو تصريف الأمثال للنَّـــاس، إنَّـــه إحاطةُ الإنسان بسلسلة من المُغريات المنوَّعة، لا معدَى له من الرُّكون إلى إحداها، أو معالجة القلوب بمفاتيح شتَّى، لا بدَّ أن يستسلم القفل عند واحدٍ منها[2]." فإشارته هنا إلى التنويع في الأساليب القرآنية أمرٌ في غاية الأهمية في توصيل المقصود إلى المتلقّين.

وقد حذّر الغزالي من الآداب المنحرفة التي تُساق إلينا في أعمالٍ فنّيةٍ برَّاقة، تـــثير الغرائز، وتغري بالشهوات، وتقطع صلّة الشباب بالدين والعقيدة، وصوّر الحيـــاة في الدول الغربية وما يشُوبُها من خلل في القيم والأخلاق، ففي أمريكا لا تكادُ الفتـــاة تبلغ سنَّ الرابعة عشرة حتى يكون خدنٌ يعاشرها معاشرةَ الزوج لزوجته، حتى تتزوَّجه أو تتزوَّج غيرَه، هذه هي ألوان الحياة القذرة المُوغلة في الإجرام وعـــصيان الله، الـــتي تجتهد عصاباتٌ من المؤلِّفين والرِّوائيين، والممثِّلين والمغنِّين والمنحلين وأشباههم في صِبْغِ

---

[1] البخاري، محمد بن إسماعيل، **صحيح البخاري**، تحقيق مصطفى البغا (اليمامة/بيروت: دار ابن كثير، ط3، 1987)، ج5، ص2176. باب الخطبة، رقم الحديث 4749.

[2] الغزالي، محمد، **نظرات في القرآن** (الجزائر: دار الشهاب، ط1، د.ت)، ص123.

بلادنا بها، أليسَ من حقِّنا أن نبصق في وجوه هؤلاءِ إذا خَطَبُوا أو كتبوا؟![1]. وهـــذا النوع من النقد الذي يمسّ الجانب الثقافي في المضامين الأدبية.

فالخطاب الديني ليس الوحيد في المجال الفكري والثقافي، فهنـــاك كـــثيرٌ مـــن الخطابات التي تريد الوصول إلى قلوب النّاس وعقولهم، وخاصّة أولئك الكتّاب الذين تَبَنَوْا كثيرًا من الأفكار المستوردة، وراحُوا ينخرُون في جسد المجتمعات الإســـلامية، ويعرضون بضاعتهم المزجاة على النّاس بدافع المعاصرة والحداثة، قال في وصف هؤلاء الكُتَّاب: "يبدو أن بعض الأدباء أَلِفَ الحياةَ في مجاري المجتمع ومـــساربه الـــسُّفلى، والمدهش أنَّه يُريد جرَّ الآخرين إلى مستواه الخُلُقي، أو أنَّه يُريدُ نقلَ روائحه المنتنة إلى ظاهر الحياة محاولاً طمسَ ما نبتَ فوقها من حدائق، وما فاح في جوِّها من عطـــور، كذلك يصنعُ كُتَّاب الجِنْسِ في بلادنا وفي أكثر أقطار الدنيا[2]." وقد انتقل الأمـــر في العقود الأخيرة إلى محاولة الإساءة إلى الثوابت الإسلامية، والاستهزاء بالرموز الدينيـــة والعلمية، والتشكيك في أصالة التراث وقيمته الحضارية.

وأمّا عن أسباب هذا الهبوط في الأدب فهي راجعة بالدرجة الأولى إلى الجهـــات العلمية المتخصّصة من معاهد وجامعات، وغيرها من مؤسسات تعليمية وتربوية، فضلاً عن فتور المؤسَّسات السياسية وعدم حماستها تجاه صيانة الآداب وحماية اللغة، قـــال: "ومع أنّ الحكومات العربية أساءت إلى اللغة و لم تحسن نصرتها، وقعدت بالأدب العالي، فلم تمنح رجالَه ما يستحقون من صدارة، إلاّ أنّي أحسبُ أنَّ المعاهد المتخصّـــصةَ في الدراسات اللغوية والبلاغية تحمل وِزرًا أشدّ في هذا المضمار[3]." فجمود هذه المؤسّسات وفتورها، يعدّ من أهمّ الأسباب في ضعف الأدب العربي وانزوائه في هذا العصر.

---

[1] الغزالي، محمد، **الإسلام والطاقات المعطلة** (دمشق: دار القلم، ط2، 2001م)، ص113.

[2] الغزالي، محمد، **حصاد الغرور** (دمشق: دار القلم، ط3، 1998م)، ص141.

[3] الغزالي، محمد، **تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل** (فيرجينيا-الولايات المتحدة الأمريكية: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 1991م)، ص185.

وأمّا الحلّ لهذه المشكلات العويصة فيراه الغزالي في الأخذ على أيدي هؤلاءِ الذين يتلاعبون بثوابت الأمّة، والسَّعي إلى تشجيع الفنون والآداب الراقية، فقد وصف تجربته في هذا المجال بقوله: "قد راقبت الفنون والآداب في عالمنا العربي فوجدت أنَّ عددًا من الفنَّانين والكتَّاب بلغ من الإسفاف حدًّا يُخشَى منه على الأخلاق والقيم الكريمة، وإذا لم يُضربْ على أيديهم فلن تفلح أمتنا أبدًا، الكلمات المحقورة تجري على ألسنتهم والحركات الهابطة، وفقدان الهدف العالي، كأنَّ المهمّ إضحاك الرِّعاع، وابتزاز أموالهم[1]." وفي سبيل إيجاد البديل عن الأدب المنحرف، كان لا بدّ من توجيه الأدباء نحو الأدب الذي يوجِّه إلى الخير والرشد، ويعرض الأمثلة الرفيعة في سياقات رائقة جميلة، من القصيدة، أو المقالة، أو الرواية، وغيرها، ويرى الغزالي أنّ التراث القديم غنيٌّ بذخائر أُهيلَ عليها التراب، وقد ساءه أنّ أهْوَنَ ما في التراث يبرز، وأنفس ما فيه يظلُّ كنزًا مخفيًا، مع إمكان الانتفاع به، وشدَّة الحاجة إليه[2]." وكذلك فإن الكثير من المضامين الفكرية، والأشكال التعبيرية، والأساليب الفنية، والنماذج والقيم الإنسانية النبيلة موجودة في تراثنا العربي القديم؛ فهي "تمتاز أولاً بأنّها هتاف فِطرٍ صافيةٍ عالية، والإسلام دين الفطرة، وتمتاز ثانيًا بأنَّها بناء بلاغي محكم يعين على بقاء اللغة سليمة الأداء، رفيعة المستوى، وأخيرًا فهي تربط عصرنا بأصوله، وتجعل حاضرنا امتدادًا له، وتعينُنا على الفهم السَّوي للكتاب والسنة[3]." ولكن يمكن مع هذا كلّه الاستفادة من التجارب الإنسانية في الآداب العالمية، ولا سيما في الجوانب الفنية والجمالية، والأشكال التعبيرية الحديثة.

وأكَّد الغزالي أنّه مع وجود هذا الأدب المنحرف، ووجود حشدٍ كبير من أدباء

---

[1] المصدر نفسه، ص192.

[2] المصدر نفسه، 193.

[3] المصدر نفسه، ص195.

علمانيين يهاجمون الإسلام بخبث شديد، في مقالات لها ليونة الأفعى وسمّها الناقع[1]، فإنّ البديل الذي ينتظره الناس – وإن طال مجيئه – هو الأدب الحيّ النافع الذي يعبّر عن العقيدة الصافية، والوجدان الصادق.

وأمّا موقف الغزالي من الأدب الإنساني بعامّة، فهو يرى أنّ فيه من النماذج الصافية التي لا تناقض الفطرة السليمة، وهو بذلك جدير بأن يستفاد منه، قال: "أنا أحتفي بالأدب الإنساني المجرّد، الأدب الذي يصفُ بصدق مشاعرَنا وما نُعاني في هذه الحياة. وعندي أنّ هذا الأدب يمتّ بصلةٍ إلى الإسلام؛ لأنّ الإسلام دين الفطرة، فما اقترب منها من قولٍ أو عملٍ يقترب منه، وما تنقصه إلا تكملة يسيرة ليكون أدبًا دينيًّا، ومن هذا المنطلق وضعت عناوين من السُّنة لشعر أو نثر، قد يكون بعضه جاهليًا، لأنّي وجدت الإسلام يقرِّر هذا الخلق، أو يحض على هذا الأدب[2]." فرؤية الغزالي النقدية قد تتسع إلى ما هو أبعد من المحلية لتصل إلى العالمية، وضرورة التعامل مع الأدب الإنساني الحيّ الذي لا يتناقض مع الطبيعة السوية، والقيم الخلقية الرفيعة، والمهمّ في الأدب هو صدق التعبير، وسلامة القصد.

لقد كان الغزالي مؤمنًا بأنّ المعركة الأدبية هي في ضخامة المعركة العسكرية[3]، وحراس الإسلام الآن في معركة بقاء أو فناء، وسيكون للأدب شأنٌ كبير في الدفاع عن عرى الإسلام، وحماية ثوابته، وصيانة لغته وتراثه من الذوبان والاندثار. ونبّه مرارًا على أنّ ازدهار الأدب سَيُعينُ الدعوة الإسلامية على الانطلاق، كما يُعين مراجع الإسلام الأولى على التألّق ويقرّب الانتفاع منها[4].

---

[1] المصدر نفسه، ص196.

[2] المصدر نفسه، ص196.

[3] المصدر نفسه، ص199.

4 الغزالي، محمد، **الدعوة الإسلامية في القرن الحالي** (القاهرة: دار الشروق ط1، 2000م)، ص75.

خصائص أسلوب الغزالي في الخطاب الدعوي

اختيار الأسلوب المناسب في مخاطبة النّاس وفق مقاماتهم وأحوالهم وتباين أذواقهم هو أحد أساسيات فنّ الإقناع، وقد اهتم الغزالي اهتمامًا كبيرًا بأساليب التعبير، سواء في الخطابة والكتابة، أو الأحاديث العامّة والخاصّة. فقد كان مدركًا لأهمّية الكلمة الطيبة وحاجتها إلى أسلوب مناسب يجمع بين الوضوح والبيان، والجودة والإتقان، وكثيرًا ما كان يعيب على أولئك الدعاة الذين لا يُوفَّقُون في اختيار الأساليب المناسبة في خطابهم ولا يهتمون به ولا يهتمون به، ولا يدركون أحوال النـاس النفسية والاجتماعية والثقافية ولا يراعونها، فقد تكون الأفكار المعروضة سليمة ولا يراعونها، والأهداف نبيلة، والنوايا مخلصة، ومع ذلك كلّه لا يحقّق الخطاب غايته من الإفهام والإقناع؛ لأنّ الأسلوب لم يكن مناسبًا، وطريقة التعبير لم تكن موفّقة. ومن هنا نجده يرفض أشدّ الرفض الأسلوب القائم على التعصّب والتزمّت لبعض الأفكار الخلافية في العقائد والعبادات والمعاملات وغيرها[1]، ويرى أنّ نجاح الدعوة كامنٌ في الفقه الجيّد، والأسلوب المناسب، ومراعاة مقامات المخاطبين، ومعرفة السنن الربانية.

والأسلوب – كما يرى النقّاد القدماء – مهارة وهيئة تناسب تأليف الكلام بطريقة بليغة، وقد قال عبد القاهر الجرجاني قديمًا: "الأسلوب هو الضرب من النَّظم والطريقة فيه[2]؛" أي أنّه القدرة على تركيب الكلام ونظمه بالاستعانة بالأدوات اللغوية والقواعد النحوية، حتّى يحقّق غاياته الإبلاغية. وكثيرًا ما يحتاج الأسلوب إلى التلطّف والتناسب في الانتقال من جهة إلى جهة، ومن مقصد إلى مقصد، وهو بحاجة إلى دربة وممارسة، ومعرفة بأساليب الكلام البليغ، ولاسيما كلام العرب الفصحاء[3].

---

[1] انظر الغزالي، محمد، **دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين** (دمشق: دار القلم، ط3، 1998م)، ص111-117.

[2] انظر: الجرجاني، عبد القاهر، **دلائل الإعجاز**، تحقيق محمود محمد شاكر (القاهرة: مكتبة الخانجي، ط1، 1989م)، ص468-469.

[3] انظر: ابن خلدون، عبد الرحمن، **مقدّمة ابن خلدون** (بيروت: دار القلم، ط5، 1984م)، ص571 وما بعدها.

وإذا انتقلنا إلى مؤلفاته وبحثنا في مكوّناتها التي ضمنت لها قدرًا من الجذب والنجاح، فسنجد أنّ التنويع في الأسلوب الأدبي هو السَّبب في ذلك، ويبدو تأثره بأسلوب القرآن الكريم واضحًا، فقد كان يتلُوه ويكثر من تدبّره ويحاول تفسيره، وكان يتحرَّى طريقته في دعوة النَّاس إلى الحقِّ.

ولعلّ من أبرز خصائص أسلوب الكتابة عند الغزالي ما يأتي:

1. الأسلوب الأدبي هو الأسلوب المفضَّل دائمًا في كتاباته؛ فهو يفضِّل عرض الأفكار بلغة أدبية مؤثِّرة، تجمع بين الفائدة الفكرية والمتعة الوجدانية، وهو يسير على هذه الطريقة في جلِّ ما يكتب، وتراه يبتعد عن طريقة المفكِّرين الذين غالبًا ما يركِّزون على التفكير العميق، دون العناية بالأسلوب والاهتمام بجمال اللغة.

2. كثرة استخدام الصور الفنية، والأمثال، والأقوال المأثورة، والنماذج الأدبية من الشعر العربي القديم والحديث؛ وذلك من أجل إيضاح الأفكار المجرّدة وتقريب مدلولاتها إلى القراء، وتوصيل ما استصعب من معانيها إلى نفوسهم.

3. التنويع في طرائق الأداء من ميزات أسلوبه؛ فهو لا يتقيّد بالأسلوب التجريدي المباشر، بل تراه يكثر من الأساليب الإنشائية كالاستفهام، والنداء، والتعجب، والأمر، كما أنه يستخدم القصَّة استخدامًا مناسبًا، وكثيرًا ما يسوق قصصًا من الواقع الحالي لتكون أبلغ في التأثير، وأكثر التصاقًا بحاجة النّاس في هذا العصر.

4. الحماسة والعواطف الجيّاشة في الدعوة إلى تَبَنِّي الأفكار التي يريد توصيلها إلى الآخرين؛ فكثيرًا ما نجده يتحدَّث بضمير المتكلّم ليدخلَ القارئَ في تجاربه الشَّخصية، وصراعه مع مخالفيه من أجل الدفاع عن المبادئ التي يُؤمن بها، وهذا النَّوع من الأسلوب يقتضي تمكُّنًا من اللغة، وثقافة واسعة، ومعرفة عميقة بالنفوس.

ومن قرأ بعضًا من مصنفات الشَّيخ أدرك أنّ أسلوبه في الخطاب جذَّاب، وأيقن أنَّه أديب متميّز بأسلوب خاصّ، ومذاقٍ مميّز، ومع أنّه تأثّر بالمدارس الأدبية القديمة والحديثة،

إلاَّ أنّه لا ينتمي إلى مدرسة أدبيةٍ معينةٍ، فهو ينبذ التقليد في كلّ شيء، يقول القرضاوي: "إن الغزالي موهبةٌ أدبيةٌ من طرازٍ نادرٍ، ولو قُدِّر له أن يتفرَّغ للأدبِ، لكان من أعظم الأدباء البارزين في العالم العربي، ولسبقَ اسمُهُ كثيرًا من الأسماء المعروفة[1]."

موقف الغزالي من الشِّعر الحرّ

كان الشَّيخ شاعرًا في صِبَاه، كما كان حافظًا لكثيرٍ من الأشعار القديمة والحديثة، ولاسيّما شعر المتنبي وشعر أحمد شوقي وغيرها، كما كان يتابع كلّ جديد يُنشر في مجال الأدب والشِّعر، ولكن كان له موقف نقدي واضحٌ من الشعر الحرّ؛ فهو يمقت هذا الشِّعر الذي قد يسميه بعضهم "قصيدة النَّثر"، ويرى فيه ميدانًا يتبارَى فيه كلُّ عاجز. وقد بيّن موقفه هذا بقوله: "قد ظلّ العربُ أقلَّ من عشرين قرنًا يصوغُون شعرَهم حسبَ البحور المأثورة عنهم، حتى جاء هذا العصرُ الأنكدُ بما يسمى "الشِّعر المرسل"، محاكاة للشِّعر الأوربي كما يقولون، وأكرهتني الأيام على سَمَاع هذا اللغو من بعض الإذاعات، أو قراءته في بعض المجالات، فماذا وجدت؟! تقطُّعًا عقليًا في الفكرة المعروضة كأنَّها أضغاثُ أحلام، أو خيالات سكران... ثمَّ يُصَبُّ هذا الهذيانُ في ألفاظ يختلط هزلها وجدِّها، وقريبها وغريبها، وتراكيب يُقيِّدها السَّجع حينًا، وتهرب من قيوده أحيانًا، ثم يُوصف المشرِفُ على هذا المخلوط الكيمائي المشوَّش بأنّه شاعر؟!"[2].

ويرى الشيخ الغزالي أنّ هذا الشِّعر يمثّلُ هبوطًا في الفكر واللغة على حدٍّ سواء، فهو نتاجُ تفكير مشوّش، وتجربة إبداعية فاشلة، ولا يصلح البتّة أن يُوسم باسم الشِّعر، وتجربة الشيخ النقدية مع هذا الشِّعر أوصلته إلى هذه النتيجة، فقد راقب إنتاج ذوي الأسماءِ اللامعة في هذا الميدان، فوجد أن السِّمةَ الغالبةَ على هذا الكلام المسمَّى شعرًا حرًّا هي "التفكير المشوَّش أو اللاتفكير، والتعبير الذي يجمعُ الألفاظَ بالإكراه من هنا

---

[1] القرضاوي، **الشيخ الغزالي كما عرفته**، ص96.

[2] الغزالي، **مشكلات في طريق الحياة الإسلامية**، ص103.

ومن هنا، ويحاولُ وضعَها في أماكنها، وتحاول هي الفرارَ من هذه الأماكن، والسؤال الذي يتردد باستمرار: لماذا أيُّها القوم تسمُّون أنفسَكم شعراء، إذا كنتم لا تحسنون قرضَ الشعر وبناء القصيد؟ لماذا لا تحاولون أن تكونُوا ناثرين بعد استكمال القدرة العقلية واللغوية؟"[1]. فكثير من هذا الشِّعر لا يصلح أن يكون شعرًا، لافتقاده لقوانين صناعة الشعر، وهو أقرب إلى الفنون النثرية، وبخاصّة إذا تحقّقت فيه بعض الشروط الفنية والشكلية.

وقد يبدو هذا الموقف النَّقدي متطرِّفًا أو مجانبًا للحقيقة، ولكنَّ الغزالي وضع له مسوغاتٍ عقلية وواقعية؛ فكثيرٌ من هذا الشِّعر مطبوعٌ بطابع الغلوِّ في الرَّمزية التي تؤدِّي إلى التعقيد اللفظي، والغموض المعنوي الممقوت، ويجد المتلقّي صعوبة كبيرة في فهم المراد من هذا الركام من الألفاظ غير المتجانسة، والعبارات غير المنسجمة، وتقليد هذا الشِّعر لمذاهب الحداثة في الغرب جعله بهذه الصورة، "وهربت مذاهب الحداثة إلى الرمز عسى أن تجد فيه نجاة من التناقض والاضطراب، فزاد الرمزُ أدبَهم غموضًا واضطرابًا"[2]. وإذا كان للرمزية ما يسوغها في الكتابات الغربية، فإنّ مبرراتها الفكرية قد لا تكون بالصورة نفسها في أدبنا العربي الحديث. ومن هنا كان سقوط هذا الشعر في وحل الرمزية منذرًا بعزوف النّاس عنه، وفشله في تحقيق رسالته الفنية والاجتماعية.

وقد تعبَ علماؤنا القدماء في وضع المصنّفات التي ترشد إلى الفصاحة، وتهدي إلى الفنون البلاغية القويمة، وجعلوا من أبرز شروط الكلام البليغ – سواء أكان شعرًا أو نثرًا – أن يكون واضحًا بيِّنًا، جاريًا على قوانين اللغة، وأن يضع الشاعر من القرائن والعلامات التي تدلّ على المعنى، إذا اتبّع سبيل الإيحاء أو الاستعارة أو الرمز أو التعريض. فأين من هذا لغة ذلك الشِّعر الذي قد يعجز صاحبُهُ عن فهمه، فما بالك بالآخرين؟!.

---

[1] المصدر نفسه، ص155.

2 النحوي، عدنان علي رضا، **تقويم نظرية الحداثة** (الرياض: دار النحوي، ط2، 1993م)، ص165.

وفضلاً عن ذلك كلّه يفتقد هذا النّوع من الشّعر إلى الموسيقى والإيقاع، اللذين هما من أبرز خصائص الفن الشعري، كما هو مبيَّن في قواعد النقد الأدبي منذ القديم. ولعلَّ خروج هذا الشعر على الشَّكل القديم، وتفلُّته من قيود الوزن، هو الذي أغرى المتطفِّلين على هذا الشعر بقرض هذا النوع منه المسمّى حرًّا، والإكثار منه، والتسابق إلى نشره بين الناس.

ومع وجود هذه المسوغات القويّة لرفض هذا النَّوع من الشِّعر، فإنّ نظرة الغزالي النقدية تنطبق على كثيرٍ من الشِّعر الذي أثبتت الأيامُ فشلَه وسقوطه، و لم يجد له سوقًا لدى أصحاب الأذواق الأدبية السليمة، لكن ومن باب الإنصاف في النقد نقول: ليس الشعر المرسل كلّه على هذا الشَّكل المذموم، فبعضه قد يصدر عن شعراءَ مبدعين قادرين على قرض الشِّعر، وتجتمع في شعرهم خصائص الشِّعر كلِّها، من معان عميقة، وألفاظ موحية، ونظم متزن، فضلا عن الموسيقى والإيقاع من خلال الحروف والكلمات، ومن هنا يمكن قبول هذا الشعر بمثل هذه المعايير.

إنّ التجديد في العصر الحديث قد شمل مناحي الحياة جميعها، وقد كان للفنون والآداب النصيب الأوفر من هذا التجديد؛ نظرًا لأهميتها الكبيرة في بناء الحضارات، وتوجيه الأذواق والثقافات، ودخل التجديد في مجال الشِّعر بقوّة، وأصبح حقيقة فرضت نفسها في الساحة الفكرية والثقافية، سواء أكان التجديد في الأشكال أم في المضامين، وأصبح الذوق الأدبي عند بعض النَّاس يفضِّل هذا الشِّعر المُحْدَثَ لعوامل كثيرة، لعلّ من أبرزها الدعاية ووسائل الإعلام، ولكن مع وجود التطفُّل على الفنّ الذي يؤدي إلى اختلاط الغثِّ بالسِّمين، ووجود بعض دعاة التجديد المزيَّفين من أمثال أدونيس وغيره من الذين يروِّجون لقصيدة النثر في صورتها الرمزية المعقّدة، حتى أصبحت شبيهة بأضغاث الأحلام أو كأنّها خيالات السكران، ومع وجود مدارس نقدية ومؤسَّسات وهيئات ثقافية تهتم بهذا الشعر وتروِّج له، "ووجود أقلام مريضة

تخدم العلمانية والخنوثة والضَّعف والشرود، وصلتها بالتراث العربي كصلة اسكندر ديماس، أو آرثر كونان دويل[1]،" مع وجود هذه المعطيات كلِّها أصبحت الحاجة ملحَّة إلى تقويم هذا السبيل، والدَّعوة إلى الشِّعر الذي يضيف إلى رصيدنا الثقافي والفكري شيئًا له قيمة في الحياة.

وإذا كان الشكل الفنّي لهذا الشِّعر مرفوضاً عند الغزالي، فإنّ المضامين الفكرية هي الأخرى شاذة وخطيرة، فقد قال: "وأما من ناحية الموضوع والحقائق الذاتية المأنوسة في أدبنا الموروث، فإنَّ الأمر مُفْزِعٌ، والجماهير المخدَّرة تشدُّها إلى القاع أقلامٌ ليس في نفثاتها فنٌّ، ولا قيم رفيعة، ولا غايات نضيرة، وعلاقتها بالإسلام وتعاليمه مقطوعة[2]." ومن هنا وجب النظر إلى هذا الشعر من جهة المحتوى، وما يقدّمه من قيم ومبادئ خلقية، وما يشمله من أفكار وحلول تكون عونًا للإصلاح والتغيير الايجابي في الحياة.

دفاع الغزالي عن اللغة العربية

يعدّ الغزالي أحد أبرز الدعاة المنافحين عن اللغة العربية في هذا العصر، فكثيرًا ما نادى بحُرْقَةٍ وألمٍ: "اللغة العربية في خطر، أدركُوها قبل فوات الأوان[3]،" وقد تحدّث في كتابه "علل وأدوية" عن علّة اللغة العربية فقال: "إن الجرأة على اللغة العربية وصلت إلى حدّ الفحش، والسُّكوت على هذا الوضع طريق إلى الارتداد عن دين الله[4]."

واللغة العربية في نظره ليست أداةً للتواصل فحسب، بل هي النسيج الروحي والثقافي والمعرفي في حياة المسلم، إنّها "بناءُ أمّةٍ، وقوامُ دينٍ، وضَمَانُ حياةٍ، وأنَّ تقويم الألسنة بها ذريعةٌ إلى حفظِ الوحي الأعلى، وتقبُّلِ عقائده بين شتَّى الأجيال وعلى كرِّ الدهور[5]."

---

[1] المصدر نفسه، ص200.

[2] المصدر نفسه، ص199.

[3] الغزالي، **مشكلات في طريق الحياة الإسلامية**، ص107.

[4] الغزالي، **علل وأدوية**، ص205.

[5] الغزالي، محمد، **مع الله**، ص47.

فإذا كانت اللغة العربية بهذا المكانة، فإنّها أداة الحضارة، ووعاء العلوم، فلغة الأمَّة "هي لواؤها الذي ترفعه في مجال الحضارة والمعرفة، فإنْ حُرِمْنَا هذا اللواء من بعض العلوم، كان لواءً متداعيًا ضعيفًا، يدلُّ على التأخُّر أكثر ممَّا يدل على الرفعة[1]." فالواجب على المسلمين حراستها، وهذا في حقّهم دين وعبادة يتقرّب بها إلى الله[2].

وعبّر الغزالي عن قلقه على مستقبل العربية نظرًا لما يُحاك ضدَّها من مؤامرات في الداخل والخارج، قال: "إنَّني قلق على مستقبلِ لغتنا، ومُتبيِّنٌ للمؤامرات الخفية والمشروعات الخبيثة التي تستهدف إماتة هذه اللغة آخرًا، بعد جعلها الآن لغة ثانوية في مجالات العلوم والصناعات، وفي مجالات الحديث العام والخطابات الرسمية، والقضاء على العربية مخطط تبشيري مدروس بعناية، وينفذ بتؤدة وإصرار، وقد بدأ هجومًا على الحروف العربية التي تكتب بها بعض اللغات الإسلامية[3]،" وإنّ القضاء على اللغة العربية يعني القضاء على الإسلام نفسه، وهدم الأساس الروحي والثقافي والمعرفي لدى الأمّة.

والخطر الذي يهدّد اللغة العربية هو النتيجة الحتمية لتقاعس العرب عن أداء واجبهم تجاه لغتهم، وتنفيذهم لخطة الاستعمار الثقافي السَّاعية إلى إلغاء دورها الحضاري والفكري والثقافي، والقضاء على أداة التواصل بين الحاضر والماضي، هذه الأداة الجامعة لهذا الشتات المتقطِّع من العاميات في الوطن العربي. "وإنّ إضعاف العربية تهديد للإسلام، تهديدٌ باجتثاث أصوله، ومحاولة متعمَّدة للخلاص منه، ولأمر ما قام الجامع الأزهر، وقامت جميع المدارس الإسلامية بتدريس اللغة إلى جانب الشَّريعة، وإحياء قواعدها إلى جوار قواعده[4]." وقد حاول الاستعمار في بلاد كثيرة قتل اللغة العربية كما حدث في الجزائر وبعض دول إفريقيا، ولكنّ خطته لم تنجح حين تمسّك

---

[1] الغزالي، **حصاد الغرور**، ص147.

[2] الغزالي، محمد، **الحقّ المرّ** (القاهرة: دار نهضة مصر، ط1، 1996م)، ج3، ص185.

[3] نفسه، ص146-147.

[4] الغزالي، **مع الله**، ص51.

أولئك بلغتهم، وجعلوها مقوّما حضاريًا لإثبات وجودهم.

وقارن الغزالي بين اهتمام الإنجليز بلغتهم وتفانيهم في خدمتها، وتخاذل المسلمين عن أداء واجبهم تجاه لغتهم، قال: "إنّ عناية الإنجليز بالغة بضبط لغتهم ونشرها، وما في لغتهم إلاّ ما يكسبُ المهارة في بعض العلوم الحديثة، ولا أدري ماذا أعمى العرب عن عشرات الدروب ينشرون فيها لغة القرآن، ويبصّرون الدنيا بمعالم الوحي الأعلى، إنّ تعلم العربية فريضة على أمَّة رسالتها عالمية، وتفريطها في ذلك خيانة فاضحة[1]." ويقرر الغزالي أنّ اللغة العربية بما لديها من طاقات تعبيرية، وما فيها من وسائل الاشتقاق والتعريب، والمرونة والاتساع، كفيلةٌ بأن تجاري اللغات الحديثة في التطوّر والارتقاء[2]. وقد أثبتت التجارب الحديثة في بعض البلاد العربية قدرة العربية على التكيّف مع العلوم الحديثة، واستيعاب المصطلحات الجديدة.

ويرى الغزالي أنّ اللغة العربية تهان اليوم بوسائل مختلفة منها:

1. الروايات التمثيلية التي تحكي عبارات السُّوقة، والطبقات الجاهلة، فتحيي ألفاظًا كان يجب أن تموت مكانها، وتؤدِّي إلى سيادة اللهجات العامية بدلَ سيادة اللغة الجامعة، هذا إذا علمنا مدى الطاقات المادية والبشرية التي تُهدر من أجل انتشار هذا النَّوع من الأدب العامِّي.

2. وتهان أيضًا في الحديث مِمَّنْ هم أهل للقدوة من الزّعماء وغيرهم، الذين يحلُو لهم أن يتحدَّثوا بلغةٍ تجمع بين الفصحى والعامية، ونحن ندرك جميعًا مدى التأثير السلبي الذي يعود على المخاطَبين عند سماعهم لهذه اللغة المضطربة، وقد أصبح من البديهيات اليوم أنَّ زعماء الدول المتحضِّرة من أحرص النَّاس على مخاطبة الجماهير بلغة راقيةٍ تجلب الاحترام.

---

[1] الغزالي، **تراثنا الفكري**، ص189.

[2] الغزالي، **مع الله**، ص342.

3. وتهان العربية عند بعض أبناء المسلمين الذين يريدون الانقطاع عن الثقافة الإسلامية، ويرون أنَّ الحضارة هي في تقليد الغربيين، والحديث بلغتهم، وهم ينظرون إلى العربية على أنَّها لغة متخلِّفة لا تُساير العصر، ويحرص هؤلاء على إدخال كلمات غريبة على لغتنا سواء أكانت دخيلة أم مترجمة ترجمةً محرّفة، قال: "لاحظت أنَّ اللغة العربية تسير من تسعين سنَّة في منحدر، فالمفردات الدَّخيلة تطارد الكلمات الفصحى في كلِّ ميدان .. كما أنّ ألفاظ الحضارة تفدُ كلّ يوم وتزيد حاملة طابعها الأجنبي، لا يكاد ينفك عنها، وفارضة الوحشة على لغتنا[1]."

4. وتهان العربية – أيضًا – في مجال الأدب، حيث اختفى الأدب العربي الأصيل، وإذا وُجدت كتابات بالحروف العربية فإنّها وعاءٌ لمعانٍ مبتوتة الصِّلة بأصولنا الروحية والدينية[2].

وقد عرض الشَّيخ عدة مقترحات عملية لخدمة اللغة العربية في مجالات تيسير النَّحو وخدمة المعجم[3]، وركّز على قضية تعليم اللغة لأبنائها أولاً، ثمّ للناطقين بغيرها من المسلمين أو الأعاجم ثانيًا، قال: "بقي عنصرٌ أخير فرَّطنا فيه كثيرًا وهو تعليم اللغة العربية، سواء للمسلمين الأعاجم أو لغير المسلمين، إن الجهل باللغة العربية يشيع بين 80 أو 85 في المائة من المسلمين. وأمَّا الجهل بها في أرجاء العالم فشيء مُفزعٌ، ولا يمكن عدُّها لغةً عالميةً مع أنَّها الوعاء الفذُّ للرسالة العالمية الوحيدة التي طرقت أبواب العالم، وشاء القدر الأعلى أن تبقى فيه إلى يومه الأخير[4]." وقدّم الشيخ مقترحات كثيرة لإحياء اللغة العربية والحفاظ على مكانتها منها:

1. تأليف بعثات وجماعات لتعليم اللغة وحدها، دون ربط هذا التعليم بالبلاغ الديني؛ أي تهيئة معرفة اللغة وإتقان مهاراتها المختلفة لأي إنسان يطلب المزيد من

---

[1] الغزالي، **تراثنا الفكري**، ص189.

[2] الغزالي، **مشكلات في طريق الحياة الإسلامية**، ص99.

[3] المصدر نفسه، ص89.

[4] المصدر نفسه، ص274-275.

الثقافة، وسوف يجني الإسلام على المدى البعيد ثمرة الازدهار اللغوي المجرَّد.

2. الجِدُّ في محاربة اللهجات العامية – داخل الوطن العربي – وتضييق الخناق عليها، ومنع البرامج التي تقدِّم الأحاديث باللغات العامية، ومنع الأزجال والمواويل، والشِّعر الفوضوي الذي يسمُّونه الشِّعر المرسل.

3. إحياء الأدب العربي الخالص وتقريبه من طبيعة العصر، أي تجريده من التكلُّف وافتعال المحسنات اللفظية، وتشجيع الشعراء المجيدين بشتَّى الوسائل.

4. أن تقوم مجاميع اللغة العربية بجهد محترم في نشر ألفاظ الحضارة، والسَّعي إلى جعل العربية لغة للعلوم الحديثة. وأشار إلى المهمّة التي يجب أن يقوم بها الأزهر في هذا الشأن، وأنّه يجب أن يستيقظ ويوقظ التعصُّب للغة العربية، ويستعجل في توفير الحماية لها، ويتعاون مع المؤسسات الفنية لمواجهة التخلّف الرَّهيب في مصطلحات العلوم وألفاظ الحضارة، ويبني حصونًا جديدة تحرس لغة التخاطب من لهجات الرِّعاع، ومواريثنا الأدبية من فوضى التغريب والتقليد الأعمى"[1].

5. ضرورة تعريب العلوم، والسبيل إلى ذلك واضح، وهو أن "تكلِّف الدولة لجانًا متخصِّصةً في كلِّ علم بإتمام تعريبه والتأليف فيه، وترجمة كلِّ ما يستجد من نظريات ومبتكرات أولاً فأولاً؛ فذلك من أهمِّ عوامل تقدم الأمة ورقيها ... ولا شكَّ أنّ تعريب العلوم من مقوِّمات المعركة الحالية، ومن عوامل الإعداد لها ولما بعدها؛ فإنَّ ذلك هو الطَّريق السَّوي إلى توحيد المشاعر"[2].

فهذا هو السَّبيل الحقيقي إلى جعل اللغة العربية متاحة للجميع، ومحترمة من أبنائها قبل أعدائها، وأن تكون وسيلة للمحافظة على الثوابت الدينية والحضارية والثقافية للأمّة، وأن تكون لغةً للعلم ولغةً للأدب الرفيع.

---

[1] الغزالي، **علل وأدوية**، ص205.

[2] الغزالي، **حصاد الغرور**، ص150.

قراءة في ديوان "الحياة الأولى"

"الحياة الأولى" اسم لديوان صدر للشيخ الغزالي، وقد تتملَّكُ الغرابةُ بعضَ النَّاس من أن يكون الشيخ الداعية الفقيه مهتمًّا بالشِّعر، ظنًّا منهم أنَّ ذلك قد يحطُّ من قدره، ويقلِّل من وَرَعِه، وبعضهم قد يستند إلى قول الإمام الشّافعي في بيته المشهور[1]:

ولولا الشِّعْرُ بِالعُلَمَاءِ يُزْرِي لَكُنْتُ اليَوْمَ أَشْعَرَ مِنْ لَبِيدِ

وقول الشافعي هذا يدلُّ على روح التفاني في خدمة الشريعة، ومحاولة البعد عن كلّ ما قد يشغل بال العالم الربّاني عن رسالته الإرشادية والدعوية، ولاسيما ميدان الشِّعر الذي هو ميدان يتسابق فيه الشعراء، وتكثر فيه الأقوال والإدعاءات، وكثيرًا ما يكون بعضها خاضعًا للأهواء والعصبيات، هذا هو مفهوم بيت الشافعي، ولكنَّه مع ذلك كلّه يمكن ردّه بحججٍ منها:

1. ذلك الشعر الكثير الذي قاله الشَّافعي نفسه، وهو مجموع في ديوان، وقد جمعه واعتنى به كثيرٌ من الدارسين، ويرى مصطفى الشَّكعة أنَّ الشَّافعي بشعره قد فاق لبيدًا شهرةً، على الرغم من فضل لبيدٍ وقدراته الشعرية[2].

2. لم يكن الشافعي بقوله الشعر مخالفًا ما جرت عليه عادة العلماء من أهل زمانه، أو حتَّى من الذين سبقوه. فقد كان كثيرٌ من الفقهاء والزّهاد من الأدباء والشعراء، ولم يكن ذلك يقدح في علمهم، أو ينقص من قدرهم، بل على العكس من ذلك زاد في مكانتهم ومنزلتهم، وعظمت محبّتهم بين النَّاس، ومن هؤلاء إمام دار الهجرة مالك بن أنس، والإمام المجاهد عبد الله بن المبارك، ثم جاء بعدهما خلقٌ كثير من العلماء الشعراء منهم: عروة بن أذينة، والحافظ ابن حجر العسقلاني، والعلامة عبد الرحمن بن خلدون، ومحمد بن إبراهيم الوزير، والإمام الشَّوكاني وغيرهم كثير.

---

[1] الشافعي، محمد بن إدريس، **ديوان الشافعي**، جمع وتعليق محمد عفيف الزعبي (بيروت: الدار الثقافية، ط1، د. ت)، ص39.

[2] انظر مقدّمة ديوان "**الحياة الأولى**"، ص6.

وشعرهم وأدبهم معروف في دواوينهم وفي كتب التراجم والرجال؛ مما يؤكِّد أن الشعر عند العلماء والفقهاء والأئمة كان من جملة الأعمال الجادّة التي تحيا بها قلوبهم، وتنشرح لها صدورهم، وتتحقَّق بها رسالتهم.

وقد تنوّعت أغراضُ الشعر في ديوان "الحياة الأولى" لتشمل موضوعات مختلفة، يتَّصل بعضها بالتعبير عن ذاته وهمومه، و يتصل بعضها الآخر بمكارم الأخلاق، واتَّجه بعضه إلى وصف مناظر الطبيعة، وبعضه الآخر إلى ذكر المناسبات الوطنية، و لم ينس الغزالي أن يُجمّلَ ديوانه ببعض القصائد الدينية. ويمكن القول إنّ الغزالي "قد طرق في ديوانه موضوعات الشِّعر النَّظيف الذي أسهم بالقول فيها الشعراء من ذوي المروءة، وتعفَّف عن طَرْقِ الموضوعات التي لا يَجْمُلُ بأصحاب المروءات الكتابة فيها، فلم يتورَّط الشَّيخ في قول الهجاء أو المديح المغلَّف بالنفاق أو الغزل، وإنَّما طَرَقَ أبواب الحكمة والإخوانيات، والتعبير عن ذاته وسلوكه، والأخلاق بعامّة، ومكارم الأخلاق بخاصّة[1]."

ومع أن ديوان "الحياة الأولى" يمثِّل بالفعل المرحلة الأولى من حياة الغزالي، وهي مرحلة الشَّباب حين كان طالبًا بمعهد الإسكندرية الديني في الثلاثينيات من القرن العشرين، إلاّ أنَّه لم يحفلْ بموضوع الغزل الذي كثيرًا ما يُغري الشَّباب في هذا السِّن، وفي هذا دلالة على أنَّ الشَّيخ اتجه إلى الورع والتقوى في مراحل متقدّمة من حياته.

وتحدث الغزالي عن ذاته وسلوكه في بعض القصائد، فجاء حديثه عامرًا بالوجدان، وكشف لنا عن شخصية متوازنة متفائلة تسير في طريقها نحو الآمال الكبيرة بنشاط دؤوب، وكفاح مستمر، على الرغم من القيود والمنغِّصات التي قد تظهر في الطريق، يقول في قصيدته "دنياي"[2]:

هي دُنْيَايَ عشتُ فيها فريداً وانتأيتُ المأوى القَصِيَّ عَتِيدَا

---

[1] المصدر نفسه، ص41-42.

[2] **ديوان "الحياة الأولى"**، ص93.

وبحَسْبِي في عُـــزلتي مـــن سَـــمِيرٍ أنَّني ما حييت أبْقَـــى وحيـــدَا
أخلصتني من كلِّ أوبـــاشِ ســـوءٍ تبتغيني منذُ اقتحمتُ الوجـــودَا
وألـــماً يُزْجِي الـــسُّكُونَ قتـــولاً لنشاطٍ ما يستـــكينُ هُمُـــودَا

وفي قصيدته التي عنونها "معاني الضَّاحك" تبدو قيمة حضارية كـــبيرة هـــي "الإيجابية في الحياة"؛ ونعني بها الحركة النَّافعة للإنسان المؤمن بالله، المتفائل بالمستقبل، الذي يرى الحياة عملاً وعطاءً، ولا يراها ضياعاً وعبثاً، يقول[1]:

أســـتعرضُ الـــدنيا وإني الآمِـــلُ أبـــداً لِمَحْيَاها أنَـــا المتفائِـــلُ
قلـــبي يحـــدِّثُني حـــديثَ مؤكَّـــدٍ السَّعدُ في العيش المحبَّب مَاثِـــلُ
نورُ الحياة ومـــا أجَـــلَّ طُيُوفَـــه يزكُو برونَقِهَا البريـــقُ الحائـــلُ
وحيُ الـــضِّيَاءِ نـــصاعةً ورحابـــةً كالعُرْسِ زخرفه سرورٌ كامـــلُ
في الأرضِ مِرْبَعُهَا ومـــشتاها أرَى نُورَ المُنَى إن كان يأسٌ ماحـــلُ

ومن الموضوعات التي أخذت حيِّزًا لا بأس به في ديوانه "القيم الدينية ومكـــارم الأخلاق"؛ فقد جادت قريحة الشيخ بمجموعة من القصائد عن "الخير والشر"، وعـــن دور العبادة – وخاصة الصَّلاة – في الحياة، وبعض الأخـــلاق والـــسلوكيات الـــتي شغلت بال الشَّيخ في شبابه، وتنبعث نسمات الإيمان الفواحة من قصيدة "الـــصَّلاة"، التي جسَّد فيها تلك المعاني التي تجعل من الصَّلاة عبادةً روحيةً تمنح صـــاحبها المتعـــة والنقاء والطهر، يقول[2]:

تلكُـــمُ الوقفـــةُ مـــا أجملَهـــا في حفولٍ بالمعـــاني الـــذاخرهْ
تلكُـــمُ الوقفـــة فيهـــا متعـــةٌ من جلال الفتـــرات الطـــاهرهْ
فتـــراتُ الطُّهـــر مـــا أجملَهـــا! حين تبدُو في الذهولِ الـــذاكرهْ

[1] المصدر نفسه، ص101.
[2] المصدر نفسه، ص100.

ويتناول الشّيخ موضوع الأخلاق بنظرات عميقة تذكرنا بتلك المعاني الجليلة في قصائد الشاعر الإسلامي الكبير "محمد إقبال"، وهي قصائد تجمع بين عمق الفكـــرة، وحرارة الكلمة، يقول[1]:

لم يكُ الدِّينُ عِصْمَتِي في عُــزُوفي ... عن حقير من الأمور مُعَــافِ
ليـــــس إيحاؤُه الكمـــالَ بعلـــمٍ ... لجهولٍ به يريـــدُ الـــشَّـــافِي
هي نفسي الحادِي الذي أرتـــضِيه ... وبنفسي الوِرْدُ الجميلُ الصَّافِي

ويعبّر في قصيدة "الغنى والفقر" عن مفهوم السعادة البشرية الذي ليس له علاقة بالماديات، ولكنّه في غنى النفس والتقرّب إلى الله بالقربات[2]:

وَدِدْتُ الغِنَى لو أنَّ ذا المَالِ مُسعدٌ ... سعادةَ ذي روحٍ سعادةَ ذِي عقلِ
فلما رأيتُ المغتـــنين سَـــعَوْا لـــه ... لذاذةَ ملبوسٍ لذاذة ذي أكـــلِ
حقرتُ ثراءً يبتغي الـــذلَّ مـــوئلاً ... يريدُ مقامِي في مواطنِهِ الغُفْـــلِ
وددتُ الغنى أقضي مطالبَ بـــائسٍ ... أوَاسِي جروحاً أو أبدِّدُ من جهلِ
غَنْيٌ أنا بالنَّفسِ والـــسَّعد والمُنَـــى ... فأيُّ ثراءٍ يبتغيني سِوَى غُـــلِّ

وفي الديوان حديث عن القيم الإيجابية التي يحرص الأدب النَّظيف على تجسيدها في فنونه وأشكاله المختلفة؛ إذ الأدب في نظر الأديب المسلم رسالة حضارية تحمل قيم الحقِّ والخير والجمال إلى الإنسانية جمعاء، وتبعث روح الأمل والتفاؤل والإيجابية في الحياة، وقد انكشف القناع اليوم عن زيف الحضارة الغربية الحديثة، وأصبح ضروريًّا لـــدى الأدباء والمفكِّرين من أبناء الأمة الإسلامية البحث عن بديل حضاري جديد يـــستمد قيمه ومرتكزاته من حضارتنا الإسلامية الخالدة، وقد كان للغزالي موقفه الواضح من الحضارة الغربية في قصيدة له بعنوان "الحضارة الحديثة" قال فيها[3]:

---

[1] المصدر نفسه، ص118.
[2] المصدر نفسه، ص109.
[3] المصدر نفسه، ص105.

ما قادها الغربُ فلتصمدْ بها الغِيَـــرُ تلك الحياةُ التي تَهْوِي وتنحدرُ
غيلت براءتُها والشرقُ مـــدرجُها لا إثمَ يُوبقها بالـــسوءِ ينـــهمرُ
لما تعـــرَّفَهَا الغربُ المريـــد ذَوَتْ مواطنُ الخير يمحُو خَصْبَها الشَّرَرُ
حضارةٌ ساءَ ما شادَ البغـــاةُ بهـــا وساءَ ما زخرفوا فيها وما بَذَرُوا
قد نَمَّقُوا الظاهِرَ الخدّاعَ واصطنعوا مظاهرًا لبّها استحذَى به الوضَرُ
حضارةُ الآلةِ المطموسَةِ احترقـــت من حرّها الرُوحُ أو للضِّيقِ تُقْتسَرُ

ويحاول الشاعر الشاب المليء بالنشاط والحيوية استنهاض همم المسلمين للعـــودة إلى مجدهم المسلوب، وتراثهم العريق، والقيام بواجبهم لتغيير واقعهم المؤسف، يقول مخاطباً الشرق على طريقة الشاعر الكبير محمد إقبال[1]:

أَيُّها الشَّرقُ أنـــت جـــدُّ غريـــب عن جلالٍ عفيٍّ وأمسٍ عظـــيمِ
أيُّها الشَّرق قد غفـــوت طـــويلاً وتماديـــت غافـــلَ التهـــــويمِ
إن ســـحرًا تزهُـــو بـــه جنبـــاتٌ منك يذرُوه رائـــعُ التحطـــيمِ
ارتضتك السماءُ مهـــبطَ وحـــي حقبَ الطُّهر في ديـــار النَّعـــيمِ
ضجَّت الأرضُ من حضارةِ سَـــوءٍ قد غلا شرّها وغـــربٍ أثـــيمِ
هل أرى الثورة العظيمـــة فيـــضًا جارف السيل في اكتساح التخوم؟

وكم كان الغزالي معلّقًا بأحبال الرَّجاء والثقة بالله في استعادة الأمة لمجدها التليد.

ومن القيم الحضارية في ديوان الشيخ ما يسمَّى في لغة علم الاجتماع بالفاعلية، وهي التي عبَّر عنها القرآن بلفظ "القوة" كما في قولـــه تعـــالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾ (مريم: 12)، وعبَّر عنها الرسول الكريم ﷺ بقوله: «المؤمن القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كلٍّ خير[2].» والقوَّة أو الفاعلية قيمة حضارية تقع اليوم علـــى رأس

[1] المصدر نفسه، ص150.

[2] النيسابوري، مسلم بن الحجاج، **صحيح مسلم**، ج4 ص2052، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة، حديث رقم 4816.

سلم القيم في المجتمعات المتمدِّنة، يقول الشَّيخ معبرًا عن فاعلية أبيه وكفاحه في الحياة[1]:

تقسمّهُ الإجهادُ فهــو مثقَّـــلُ ينوءُ بأعبــاءِ المعــايشِ مُتْعَبَــا
مدَى العمر لا يُلْقِي سلاحاً بكفِّــه فَطَوْراً أخا حربٍ وطَوْراً تأهُبَا
يظلُّ بحوماتِ الجِهَــادِ مكافحــاً فسيَّان في أيامِهِ الشَّيْبُ والصِبَا
طريد من الإسعادِ فالدَّهْرُ خلفَــهُ دؤوبٌ ولن يألُو هوى العيش مأربا
فبوركْتَ من عُمْرٍ تضاعفَ سَــعيُهُ وبُورِكْتَ من فَذٍّ وبُوركتَ يا أبَا

وللغزالي قصائد في بعض المناسبات الوطنية التي عبّر فيها عن أفكاره ومشاعره، ومن ذلك قصيدته "الحصاد" التي قالها بمناسبة عيد الحصاد في قريته؛ حيث عبّر عــن فرحة الناس بما جنوا من أعمال، وفيها إشارة واضحة إلى قيمة "العمل" في حياة الأمَّة، وكيف يحيا النَّاس بثمرة أعمالهم الطيِّبة وجهودهم المخلصة، يقول[2]:

لليوم ما غَرَسُوا قِدْماً وما اجتهدُوا وبُورِكَ الغرسُ في أعقابه حصدُوا
وبوركَ الزهرُ لم يكذبْ وقد بسمتْ تُرْجَى الأماني نورًا سُوقُه النضدُ
هذا جَنَى البدءِ في دانــي ســنابلِهِ للنصرِ ما عملُوا والصدقِ ما وعدُوا
الماءُ والنورُ والفلاحُ قد صــنعُوا عِقدًا من الثمرِ المنظوم يطــرّدُ

وفي ذكرى ضرب الإسكندرية نجد الغزالي متحسّرًا على ما أصاب أمته من مصائب وخطوب، وهي مناسبة حزينة استثمرنا الشاعر لبثِّ الحماسة في القلــوب، والثقــة في النفوس، كلّ ذلك من أجل التصدّي للأعداء المتربّصين بأرض الكنانة، فهــذه الــذكرى الأليمة التي تبعث في نفسه الأسى والحزن، لا يمكن نسيانها إلاّ بالثأر الذي يفرح القلوب النصر، وهي قصيدة تذكرنا بقصيدة أبي البقاء الرندي في رثاء الأندلس، يقول[3]:

---

[1] الغزالي، محمد، **"الحياة الأولى"**، ص130.

[2] المصدر نفسه، ص139.

[3] المصدر نفسه، ص163.

ذِكْرَى تمرُّ وملْءُ النفسِ أشـــجَانُ فتحرجُ الصَّدْرَ غمًّا فهو كظانُ
تمرُّ عـــابرَةً بالـــذِّهْنِ في عجَـــلٍ تستاقُ مجْفوَةً والقلبُ غـــضبانُ
ذلٌّ يُكَبِّلُني مـــن هولِـــهِ كمَـــدٌ فيهرَبُ الفكرُ لا يُنجيهِ سُلْوَانُ
دهَى الكنانةَ ما قدْ راعَ عزمَتَهـــا هَوَى بها في حضيضِ الذلِّ طُغيانُ
ذكرّى تَظَلُّ تثيرُ الحقدَ مـــضطرمًا وتُوغِرُ الصَّدْرَ ولا يُلهيهِ نسيانُ
الثأْرُ يا فِتْيَةَ الوادي فما بـــسوى نصرٍ عزيزٍ تُزيلُ العارَ أوطـــانُ
يا مِصْرُ ما شمسُكِ الحسناءُ مُسفرةً ولا نباتُكِ حالي العُـــودِ ريَّـــانُ
حتى يزولَ قتامٌ لا يـــزالُ قـــذًى ونُمحِي من قيودِ الأسرِ أرسانُ

وتأثَّر الغزالي بثورة عرابي أيّما تأثير، وقد عبّر في قصيدة له عن مشاعره تجاهه، وتجاه كفاحه ومحاولته توحيد الشعب المصري لمقاومة الاستعمار، وهو يحييه بالنيابـــة عن الأمّة على الرغم من الصعوبات والكبوات، فالهزيمة في حقّك نصرٌ؛ لأنّها صنعت طريق للجهاد ستُؤتى ثماره في المستقبل، يقول[1]:

حيَّتكَ من نفسي عواطِفُ ثـــائِرٍ لا يستكينُ لسطْوَةٍ من جـــائرِ
حيّتكَ نفسي بـــلْ تحيَّـــةُ أمَّـــةٍ تحبوكَ تمجيدَ الجـــريء المـــاهرِ
إن فاتكَ النصرُ الجميـــلُ فإنَّهـــا كبواتُ جدٍّ في طريـــقِ واعـــرِ
حيَّتـــكَ أرواحٌ تكـــافحُ لا تـــنى دأبَ الحريصِ على الجهادِ الذاكرِ
أبَدًا هو العملُ الحثيـــثُ أأثمـــرتْ أغراسُهُ أم تلكَ رُجْعَى الخَاسرِ

وللغزالي قصائد في الحبِّ الإلهي، نهج فيها نَهْجَ شعراء الصُّوفية في اتّخاذ الخمرةِ رمزًا للحبِّ الإلهي، وهو يعبّر من خلالها عن مشاعر المحبّة والطمأنينة، والوداعـــة والجمـــال، والرغبةِ الصَّادقة في التقرّبِ إلى الله تعالى، يقول الشَّيخ في قصيدته "الخمرة الإلهية"[2]:

غريبًا أرى نفسي فأجفلُ إذ هوتْ حياتي يغزوها عن اللهِ بعـــدُها

1 المصدر نفسه، ص157-158.

2 المصدر نفسه، ص85.

وربَّ كؤوسٍ حفَّها الأمنُ والهدَى شربتُ فما أسمَى الذي رُدَّ مجدُها
خمورٌ تنَاهَى في الكمالِ صفاؤُها نفَى السوْءَ معناها إذا اشْتيرَ شهدُها
أعيدي طريدَ القربِ من شرِّ ضلَّةٍ رَمتْهُ بعمياءَ تسَعَّرَ وَقْدُها
إلى اللهِ واغتالي من الصَّحوِ زائفًا كذوبِ حياةٍ خابَ في السَّعيِ وِرْدُها

وللشيخ أشعارٌ في الحكمة والتأمّل في الحياةِ، عبّر فيها عن أفكاره وعواطفه تجاه الإنسان وعلاقته بالكون، وكثيرًا ما كان يستعير الضياء للدلالة على الإيمان، والظلام للدلالة على الكفر، ومن أمثلة ذلك قصيدته عن "نور الحقيقة" التي يقول فيها[1]:

أيّها النورُ أنتَ تُلْقي وضُوحًا لأناسٍ عاشُوا بأبشَعِ سرِّ
لا يُطيقُونَ في الحقيقةِ عيشًا فضِياءُ الحقيقةِ الغمرُ يُزري
حشراتٌ في نورِهَا الحقّ تَفنَى مثلَ قتلِ الشعاعِ كلَّ مُضِرِّ
ولهذا الظلامُ خيرٌ من النُّورِ إذا كنتَ لا تَرَى وجْهَ حُرِّ

وللغزالي شعر لطيفٌ في الوصف، فقد وصف الشَّمس والشروق، ووصف الفجر والليل، ووصف البدر والنَّجوم، ووصف الطَّبيعة الخضراء، وهي جميعها من الظواهر التي كثيرًا ما تغنَّى بها الشعراء، وأبدع في وصفها الفنانون والمبدعون، يقول في قصيدته "حنين إلى الطبيعة"[2]:

تلكَ المروجُ بهيجة يهتزُ في إيناعِهَا سحرُ الحياةِ الخالدُ
ويموجُ في سيقانِهَا متأوِّباً نَغَمُ الطلاقةِ والرفيف الناشدُ
خضراءُ يانعةٌ كميسورِ المُنَى صفراءُ يابسةٌ جناها الحاصدُ
أمّي الطبيعةُ ما أجلَّ معانيا يرنُو إلى أصدائِهِن الواجدُ

ويبقى أن نشير إلى أنَّ ما قدمناه من نماذج مختارة من شعر الغزالي وما جادت به قريحته في مرحلة الشباب، تدلُّ دلالة واضحة على شاعرية متوقِّدة، وموهبة

1 المصدر نفسه، ص116.
2 المصدر نفسه، ص149.

متأصِّلة كان الشيخ يملكهما في حياته الأولى، ولو أنَّه استمر في هذا الطريق لكان من الشعراء المبرِّزين، لكنَّه آثر العلم والتفقه في الدين، فكان أحد الدعاة المعروفين في القرن العشرين.

خاتمة

ومن العرض والتحليل السابقين، يمكن أن نخلص:

1. تناول الغزالي بعض القضايا الأدبية والنقدية، وحاول ربطها بقضايا الأصالة والتجديد في مسيرة الحركة الثقافية والفكرية في القرن العشرين، وكان النقد الأدبي وسيلة لديه لتوجيه الأدب نحو القيم الإنسانية الرفيعة، وجعله أداة في خدمة قضايا الأمة الإسلامية المصيرية.

2. كانت الدعوة إلى الأدب الإسلامي الحيّ من أبرز القضايا الأدبية والنقدية في كتاباته، وهو الأدب الذي ينبعث من قيم الإسلام ومبادئه، ويدافع عن أمجاده وبطولاته، ويذكِّي العاطفة الإنسانية، وأمّا الأدب المنحرف بأشكاله المختلفة؛ فهو وسيلة في أيدي الاستعمار الثقافي ودعاة التغريب لنقض عُرَى الإسلام، وإبعاد المسلم عن دينه وثقافته وهويته الشخصية.

3. حظيت كتابات الغزالي بالأساليب الأدبية الجميلة، وجاءت أفكاره في مجالات الشريعة والعقيدة والفكر الإسلامي في قوالب أدبية قريبة التناول لدى المتلقّين، وتجلّى هذا الطابع الأدبي في توظيف النّماذج الأدبية الراقية، وفي اختيار الأسلوب المناسب في التعبير عن القضايا المختلفة التي تهمّ المسلمين في حياتهم الدينية والدنيوية.

4. اهتم الشيخ اهتمامًا كبيرًا بأساليب التعبير، سواء في الخطابة أو الكتابة أو الأحاديث الدعوية العامّة والخاصّة؛ من أجل أن يحقّق الخطاب غايته من الإفهام والإقناع، وكان يرفض أشدّ الرفض الأسلوب القائم على التعصّب والجمود في عرض

العقائد وغيرها من قضايا الشَّريعة.

5- كان موقف الشيخ من الشعر الحرّ هو الرفض القاطع؛ لأنّه رأى فيه هبوطًا في الفكر واللغة على حدٍّ سواء، فهو نتاجُ تفكير مشوّش، وتجربة إبداعية فاشلة، ولا يصلح البتّة أن يوسم باسم الشِّعر؛ فكثيرٌ من هذا الشِّعر مطبوعٌ بطابع الغلوِّ في الرَّمزية التي تؤدِّي إلى التعقيد اللفظي، والغموض المعنوي الممقوت.

6- اللغة العربية ليست أداة للتواصل فحسب، بل هي النسيج الروحي والثقافي والمعرفي في حياة المسلم، بما لديها من طاقات تعبيرية، وما فيها من وسائل الاشتقاق والتعريب، والمرونة والاتساع، كفيلةٌ بأن تجاري اللغات الحديثة في التطوّر والارتقاء.

7- تنوعت أغراض الشعر في ديوان الشَّيخ "الحياة الأولى" لتشمل موضوعات مختلفة، يتَّصل بعضها بالتعبير عن ذاته وهمومه، و يتصل بعضها الآخر بمكارم الأخلاق، واتَّجه بعضه إلى وصف مناظر الطبيعة، وبعضه الآخر إلى ذكر المناسبات الوطنية، وفي هذا الشِّعر الكثير من القيم الحضارية.

المراجع: References:

Al-Bukhārī, Muḥammad bin Ismā'il, *Ṣaḥīḥ al-Bukhāri*, ed. Muṣṭafā al-Būghā (Beirut: Dār Ibn Kathīr, 3rd edition, 1987).

Al-Jurjānī, 'Abd al-Qāhir, *Dalā'il al-I'jāz,* ed. Maḥmūd Shākir (Cairo: Maktabat al-Kanjī, 1st edition, 1989).

Al-Naḥwī, 'Alī Riḍā, *Taqwīm Naẓariyyāt al-Ḥadāthah* (Riyadh: Dār al- Naḥwī, 2nd edition, 1993).

Al-Nīsābūrī, Muslim bin Ḥajjāj, *Ṣaḥīḥ Muslim,* ed. Muḥammad Fu'ād 'Abd al-Bāqī (Beirut: Dār al-Fikr, no date).

Al-Qarḍāwī, Yūsuf, *al-Shaykh al-Ghazālī Kamā 'Araftuhū* (Cairo: Dār al-Shurūq, 1st edition, 2000).

Al-Ruwayli, Mījān, al-Bīzi'ī, Sa'd, *Dalīl al-Nāqid al-Adabī* (Casablanca: al-Markaz al-Thaqāfī al-'Arabī, 3rd edition, 2002).

Al-Shāfi'ī, Muḥammad bin Idrīs, *Dīwān al-Shāfi'ī*, ed. Muḥammad 'Afīf al-Zu'bī (Beirut: Dār al-Thaqāfah, no date).

Ibn Khaldūn, 'Abd al-Raḥmān, *al-Muqaddimah* (Beirut: Dār al-Qalam, 5th edition, 1984).

Kifāḥ Dīn, *Muḥammad al-Ghazālī* (Cairo: Dār al-Nahḍah, 1st edition, 2001).

Majmū'at al-Bāhithīn, *al-'Aṭā' al-Fikrī li al-Shaykh Muḥammad al-Ghazālī* (Amman: IIIT, 1st edition, 1996).

Muhammad al-Ghazali, *'Aqīdat al-Muslim* (Damascus: Dār al-Qalam, 1st edition, 1998).

_____, *'Ilal wa Adwiyah* (Damascus: Dār al-Qalam, 3rd, edition, 1998).

_____, *Ḥaṣād al-Ghurūr* (Damascus: Dār al-Qalam, 3rd edition, 1998)

_____, *al-Ḥaqq al-Murr* (Cairo: Dār al-Nahḍah, 1st edition, 1996).

_____, *Al-Da'wah al-Islāmiyyah fī al-Qarn al-Ḥālī* (Cairo: Dār al-Shuruq, 1st edition, 2000).

_____, *al-Islām wa al-Ṭāqah al-Mu'aṭṭalah* (Damascus: Dār al-Qalam, 2nd edition, 2001).

_____, *Dīwān "Al-Ḥayāt al-'Ūlā",* ed. Muṣṭafā al-Shak'ah (Cairo: Dār al-Shuruq, 1st edition, 1998).

_____, *Dustūr al-Waḥdah al-Thaqāfiyyah bayna al-Muslimīn* (Damascus: Dār al-Qalam, 3rd edition, 1998)

_____, *Ma'a Allāh: Dirāsāt fi al-Da'wah wa al-Du'āt* (Damascus: Dār al-Qalam, 2nd edition, 1996).

_____, *Mushkilāt fī Ṭarīq al-Ḥayāt al-Islāmiyyah* (Doha: Ri'āsat al-Maḥākim al-Sh'ariyyah, 1st edition, 1402).

_____, *Naẓarāt fī al-Qur'īān* (Algiers: Dār al-Shihāb, 1st edition, no date).

_____, *Turāthunā al-Fikrī fī Mīzān al-Shara' wa al-'Aql* (Virginia: IIIT, 1st edition, 1991).

Uways, 'Abd al-Ḥalīm, *al-Shaykh al-Ghazālī: Tarīkhuhū wa Juhūduhū wa Ārā'uhū* (Damascus: Dār al-Qalam, 1st edition, 2000).